الغدر والخيانة في الحرب الشيشانية

محمد يوسف عدس

مساحة دولة الشيشان ١٦ ألف كيلو متر مربع وعدد سكنها حوالي مليون ونصف مليون نسمة .. وضعها الحاليّ أنها إحدى جمهوريات روسيا الاتحادية ، وتقع في شمال شرق منطقة القوقاز.. وتبعد عن موسكو حوالى ألف ميل جنوبًا ، وتحدها كل من داغستان وجورجيا وكراي ستلفروبول وأوسيتيا الشمالية وأنجوشيا ..

ولن نخوض في حقيقة علاقة التبعية الشيشانية لروسيا الاتحادية ولن نتحدث عن الصراع التاريخي بينهما الذى امتدّ لعدة قرون خلال عصور ثلاثة متتابعة : عصر الإمبريالية القيصرية ، وعصر الاتحاد السوفييتي ، ثم عصر روسيا الاتحادية. وإنما يكفينا اللمحات الأخيرة في هذه العلاقة الدموية المروعة التي انتهت بظهور يلتسن وبوتِنْ ، ونجاح الأخير بالخيانة والغدر فى تصفية قيادات المقاومة الشيشانية ، وإقامة دولة شبه مستقلة تحت حكومة عميله يرأسها الشيشاني الخائن أحمد قديروف.. ولن نتحدث عن سر تمسّك روسيا الجنوني بالاحتفاظ بالشيشان ، وحرصها على تصفية المقاومة المسلحة بها ، لتتمكّن من نهب مواردها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية الهائلة .. فقد خصّصْتُ لهذا الموضوع كتابًا مستقلًا قامت بنشره دار المختار الإسلامي سنة ٢٠٠٠م.

أقول: للشيشانيين تقاليد راسخة في كرم الضيافة وعشق الحرية والعدل والمساواة ، ويتمتّعون بروح الفروسية، مما تردد صداه في الأدب الروسي الكلاسيكي . وتجلّت هذه الخصائص واضحة في الحرب التي فرضتها الحكومة الروسية عليهم لمدة عامين (من سنة ١٩٩٤م إلى سنة ١٩٩٦م) ؛ فقد تصرفوا بشجاعة وكانوا أبطالا شرفاء، فلما انتهت هذه الجولة من الحرب بهزيمة الجيش الروسي ، وأُبْرِمَتْ اتفاقية سلام بينهم وبين القوات الروسية نفذوا بنودها بأمانة وشرف ، وأفرجوا عن جميع الأسرى الروس دون أن يمسوا أحدا منهم بسوء، أما الروس فكانوا أبعد ما يكونون عن الأمانة والشرف ، فلم يعبأوا بتنفيذ الاتفاقية التي وقّعوها ولم يفوا بوعودهم وعهودهم، وكان لديهم ألفا سجين مدني من الشيشانيين- قتلوهم بلا محاكمات ولا توجيه تهم إليهم..

وكان سلوك الروس في الحرب سلوك قتلة وقطاع طرق لا سلوك محاربين، وفيما يلي نموذج واحد من مئات الجرائم التي ارتكبوها أثناء الحرب في حق المدنيين: فقد قامت القوات الروسية في ١٥ إبريل ١٩٩٥م باقتحام قرية "سامشكى" الشيشانية وأوقعوا بالأهالي المسلمين مجزرة وحشية. يقول شهود العيان: "توجهنا إلى القرية بعد خروج الروس منها لنتحقق من خبر شاع في المنطقة بأن مجزرة ما حدثت في مدرسة أطفال القرية، فلما وصلنا إلى المدرسة هالنا منظر عشرات من جثث الأطفال ممزقة بالرصاص في أرجاء المدرسة، وكان هناك نساء من أمهات الأطفال وأقاربهم يحاولن جمع الأشلاء المبعثرة لدفنها ، ثم انتقلنا بعد

ذلك إلى منزل أشار إليه الأهالي فدخلناه لنفاجأ بمشهد مروّع لجثث أطفال مشنوقين بأسلاك كهرباء، معلقين في سقف المنزل، كانت عيونهم جاحظة ووجوههم متورمة.. لقد هرب هؤلاء الأطفال من مجزرة المدرسة ولكن تتبعهم الجنود الروس إلى حيث عثروا عليهم مختبئين في ذلك المنزل فأمسكوا بهم وشنقوهم هناك ، ولم يكتف الروس بقتل الأطفال فقط وإنما قاموا بإحراق ثلاثين جثة رأيناها مبعثرة حول المنزل ".

فماذا فعل الروس بعد المجزرة..؟ -أحاطوا القرية بسياج ومنعوا الدخول إليها لمدة ثلاثة أيام في محاولة لإخفاء معالم جريمتهم ، ولكن يبدو أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي لطمس كل آثار المجزرة فأشعلوا النار في جثث الأطفال قبل أن يرحلوا.
(أنظر في هذه الواقعة تقارير منظمة العفو الدولية في نوفمبر ١٩٩٥م)

ونتابع الأحداث المأساوية فى الجولة الثانية من الحرب الشيشانية التي شنتها روسيا ابتداءً من عام ١٩٩٩م أي بعد انتهاء الجولة الأولى بأربعة أعوام:
ونتابع الموضوع في أشهر وأصدق تقرير لشاهد عيان سجله في صحيفة الأوبزرفر البريطانية؛ فقد قامت الصحفية "أميليا جنتلمان" بتحقيق تحت عنوان "أسرار الحرب الانتقامية: الرعب في الشيشان محجوب عن العالم" تحكى فيه قصة قرية سامشكى من خلال مأساة لحقت بأعضاء أسرة فيها .. حيث تبدأ بـ"مدينا عبد الرحمانوف" .. تقول: هي فتاة شيشانية كسر الروس ساقها في الحرب السابقة وفي هذه الحرب قطعوا ساقها وذراعيها جميعا، إنها فتاة في الثانية والعشرين من عمرها مكثت المرة الأولى خمسة أشهر في المستشفى بعد هجوم إبريل ١٩٩٥م، وهي ترقد الآن في المستشفى للمرة الثانية غارقة في أوجاع لا تحتمل .. أجريت لها عدة عمليات جراحية ولكنها لم تنجح ، وهي لا تدري كم من الوقت ستبقى في المستشفى".

وتمضى الصحفية في عرض قصتها الانسانية بإسهاب شديد نفهم منه:
أن والدة "مدينا" عمرها ٤٢ سنة واسمها "خافا" كانت تعمل محاسبة في مصنع تعليب أغذية، تقول: كنت أجهز طعام العشاء في مطبخ مظلم بدون كهرباء ولا غاز عندما رأيت الطائرات الروسية تحلق فوق القرية الشهر الماضي، فأسرعت أنا وابنتي إلى مخبأ بأسفل البيت، هو غرفة صغيرة كنا نحفظ فيها محصول البطاطس، وكنا قد أعددناه لنأوي إليه أثناء الغارات في الحرب السابقة، ولم تزل الشموع موجودة به، كانت أصوات الانفجارات تصمُّ الآذان فكنا لذلك نجلس صامتين أثناء القصف، وبين الغارة والأخرى كنا نتحدث أحيانا ماذا سنفعل إذا نجونا من هذه الحرب وكيف سيكون الحال إذا قتلنا".

سامشكى التي كانت رمزا للدمار الذى أحدثته القوات الروسية في الحرب الشيشانية الأولى، أصبح سكانها أشد رعبا من القصف هذه المرة، ولذلك اتفقت إدارة القرية مع القوات الروسية أن تخلى القرية من المتمردين في مقابل ضمان من القوات الروسية ألا تهاجم القرية، تقول "خافا" كنا نعرف أنه ليس عندنا متمردين ولا مسلحين فيما عدا بعض صبيان كانوا يلبسون زى المقاتلين ويمشون في القرية، وقد اقتنعوا بالرحيل عن القرية والالتحاق بالمقاتلين

في جروزني، وعلم الروس بالأمر، ومع ذلك قذفوا القرية بوابل من القنابل، هكذا قالت "إيمان أفديفيا" عندما تحدثنا إليها في عربة قطار قديمة هي ملجأها في إنجوشيا بعد خروجها من القرية مع أطفالها الأربعة.

وتمضى "إميليا جنتلمان" في استكمال قصة سامشكى المنكوبة، فتكتب على لسان لاجئ آخر كان يعمل بالشرطة الشيشانية هو "وحيد دربيشيف" قال: "حدث أعنف هجوم روسي علينا يوم ٢٣ أكتوبر واستمر لمدة ساعة ونصف متواصلة ، كانت الصواريخ تمزق سكون الليل في القرية وتتساقط علينا من كل ناحية، وفي الصباح خرجنا إلى قائد القوة الروسية المرابط خارج القرية فقال لنا: "لقد كان خطأً ووعد ألا يتكرر هذا الخطأ، وكان علينا أن نقبل الوعد، فلم يكن في مقدورنا الخروج من القرية والرحيل إلى إنجوشيا، لأن الطريق الذي كان مفتوحا لسفر اللاجئين أغلقه الروس بحجة أنهم لا يستطيعون التمييز بين الأهالي وبين الإرهابيين.

وفي ٢٥ أكتوبر عاد الروس لقصف القرية مرة أخرى. في هذا الهجوم ارتفع عدد الضحايا كثيرا وغضب الأهالي فذهبوا يشكون إلى إدارة القرية ، فقيل لهم لا حيلة لنا مع الروس إنهم يَعِدُون ويخلفون".. استمر القصف بعد ذلك لعدة أيام دون انقطاع والأهالي قابعون في المخابئ لم يجرؤ أحد على الخروج أثناء النهار، كانت المحلات التجارية مغلقة ، ولم يذهب أحد إلى العمل فالمصانع أيضا كانت مغلقة.

وتمضي أميليا جنتلمان تستكمل قصة قرية سامشكى على ألسنة اللاجئين المشردين من أهلها تقول:
"بعيدا في إنجوشيا التقيت بالطفل "رستم دربيشيف "١٢ سنة.. كانت أسرته قد أرسلته إلى إنجوشيا ليعيش في خيمة مع إخوته الثلاثة .. يقول: بدأ الروس يقصفون القرية ثم دخلوها وقتلوا ابنة عمتي وقتلوا جدي برصاصة في ظهره وكذبوا علينا عندما قالوا إنها كانت حادثة غير متعمّدة .. لقد بدأت أكره الروس من قلبي".
ويعقب وحيد أب رستم يصف الهجوم الذي قُتلت فيه ابنة أخته فقال: بدأ الهجوم الساعة ٨,١٥ مساءً يوم ٢٦ أكتوبر واستمر طول الليل .. كل شئ في القرية كان يحترق .. لم نكن قد تمكّنا من إعادة قطيع الماشية من الحقول .. وكان الروس يقتلون كل شئ حيّ يتحرك على الأرض .. قتلوا البقر والكلاب والقطط لم يتركوا شيئا .. في تلك الليلة قُصف منزل أختي فأصيبت في رأسها وعمودها الفقري وقتلت ابنتها على الفور .. وفي الصباح أسرعت إلى منزل أختي فحملتها إلى المستشفى .. ولكني وجدت المستشفى مليئة بالجرحى .. رأيت الجحيم في المستشفى: أكوام من البشر بدون أذرع وبدون أرجل وأنين يفوق الاحتمال .. نصحني الطبيب أن نذهب إلى مستشفى أخرى، فأخذتها وذهبت وكانت الطائرات الروسية تحوم فوق رءوسنا، .. كانت أختي تهلوس ودرجة حرارتها مرتفعة وتقول في أنين: كانت ابنتي بجانبي طول الوقت فأين ذهبت ... أين ذهبت؟!".
في ذلك الصباح أصيبت "مدينا" عندما خرجت من مخبئها تحضر بعض مياه للشرب، تقول أمها: "توقفت الغارة ذلك الصباح وظننا أن هذا كان نهاية الهجوم فخرجنا وعندئذ استأنف الروس غاراتهم من جديد وكان منزلنا أول منزل تصيبه القذائف .. استعنت بجار لنا حملنا في سيارته، وذهبنا نبحث عن مستشفى ولكن الطائرات كانت تقصف طريقنا والسيارة تسير بسرعة كبيرة وظننا أن نهايتنا قد اقتربت".

يتذكر أهالي قرية سامشكى المتقدمون في العمر أنها كانت قرية جميلة آمنة ترقد في أحضان النهر وتمتلئ حقولها بأشجار التفاح، أما اللاجئون العائدون منها حديثا فإنهم يقولون إنها أبشع الأماكن وأكثرها خرابا.. يقول أحدهم واسمه "حسبواللاطوف"، عمره ٦٣ سنة، رحل منها الأسبوع الماضي:
"الذين قرروا البقاء في القرية يلاقون أسوأ معاملة وأقسى اضطهاد من الجنود الروس، فهؤلاء الجنود لديهم تعليمات لتطهير القرية من سكانها.. إنهم يفتشون البيوت كل يوم ويقرأون كل ورقة فيه بحجة البحث عن أسلحة، ويقتحمون البيوت المهجورة فيسرقون كل ما فيها .. لا يتركون شيئا من الدقيق أو الأجهزة الكهربائية .. حتى لعب الأطفال".

سكان قرية سامشكى عشرة آلاف هرب نصفهم لاجئين، وأما الباقي فبعضهم من كبار السن أقعدهم العجز، والآخرون فضّلوا البقاء في وطنهم مع خطر الموت على عذاب اللجوء والتشرد.
[في الجولة السابقة من الحرب الشيشانية (٩٤ – ١٩٩٦م) كان وزير الدفاع الروسي السابق "بافيل جراشيف" يتباهى بأن الشيشان يمكن أن تستسلم في ساعتين اثنتين من القصف الجوي المركّز، ولكن الحرب استمرت عامين وانتهت بكارثة عسكرية وهزيمة مهينة لروسيا، وسقط الثلاثة الكبار الذين خططوا لهذه لحملة وأداروها، سقط وزير الدفاع، وسقط وزير القوميات "نيقولاى إيجوروف" ومدير المخابرات الفدرالية "سيرجى ستيباشين".. أما في الجولة الثانية فقد كانت هزيمة المقاومة الشيشانية مروّعة أتدرون لماذا.؟!
يحاول المحللون الغربيون إقناعنا بأن الجيش الروسي عاد باستعدادات وتدريب أقوى مستفيدًا بتجربته الخاسرة في الجولة الأولى.. تملأه روح الانتقام .. وهذا صحيح ولكنه يمثل نصف الحقيقة أما النصف الثاني من الحقيقة -وهو موثّق أيضًا - ولا يستطيع أحد إنكاره فإنه الخيانة والغدر في داخل القيادة الشيشانية و المتمثّل في شخصية "أحمد قديروف" وإليك بيان هذه الحقيقة:

ولد أحمد قديروف في كازاخستان عام ١٩٥١م وكانت أسرته ضمن مئات الألوف من الشيشانيين الذين اقتلعهم السفاح السوفييتي استالين وفرض عليها التهجير القسري خلال الحرب العالمية الثانية ، واستطاعت أجهزة أمنه تصفية العدد الأكبر من الأشخاص الذين تشككت في ميولهم إلى المقاومة ضد الاحتلال الروسي ، وعملت من ناحية أخري على اختيار وتدريب عناصر موالية لها لاستخدامهم في خططها الرامية إلى تطويع الشعب الشيشاني للتبعية الروسية؛ وكان أحمد قديروف أحد هؤلاء .

ففي سنة ١٩٨٩م ظهر أحمد قديروف إلى السطح عندما تولى رئاسة أول معهد للدين الإسلامي [صناعة روسية] في شمال القوقاز ، ثم تمّ تعيينه مفتيا للشيشان عام ١٩٩٣م. ويبدو أن روسيا كانت تعدّه ليقوم بدور خطير من داخل القيادة الشيشانية ، فقد تظاهر بالحماس ضد الاحتلال الروسي وأخذ يدعو إلى الجهاد الإسلامي ، وأصبح قائدًا عسكريا من قيادات الشيشانية .. في هذه الفترة تمكّن من الاطلاع على دخائل المقاومة وعرف أسرارها وتسليحها

ومصادر تمويلها ونقاط الضعف فيها ، وأبلغ كل هذه المعلومات إلى أجهزة المخابرات الروسية التي كان يرأسها فلادمير بوتن ..

ولكن سرعان ما انقلب رأسًا على عقب ؛ ففي عام ١٩٩٩م فاجأ الجميع بإدانته العلنية للقائد العسكري شامل باساييف في محاولته تشكيل دولة إسلامية. . وجرى مع التيار الروسي في اتهام "خطّاب" بالأصولية الوهابية وضرورة طرده من الشيشان.

كما لعب دورا خطيرًا في تسليم مدينة "جودِرْمس" -ثانية أكبر المدن الشيشانية- للقوات الروسية دون طلقة رصاص واحدة . مما حافظ على المدينة من التدمير الشامل الذي واجهته العاصمة ؛ وقد تنبّه إلى خطورة الرجل الزعيمُ الشيشاني أصلان مسخدوف فأطلق عليه صفة العدو رقم ١، وقام على الفور- بفصله من منصب كمفتى للشيشان.. ولكن تمكّن بوتِن من القضاء على القيادات الشيشانية العسكرية غيلة وغدرًا ، بأيدٍ خفية كان يوجهها في الخفاء أحمد قديروف . وبذلك تمت الهزيمة الشيشانية ولم تبق إلا جيوب صغيرة ؛ فكان الانتقام الروسيي ساحقًا وشاملا لمجموعات كبيرة من المدنيين العزل معظمهم من النساء والأطفال الذين لم يشتركوا في مقاومة ولا حرب ولكنها كانت عملية تركيع وتمهيد لبسط السيطرة الروسية على الشعب الشيشاني ليقبل ويستسلم لعميلها الأكبر في حكم الشيشان أحمد قديروف.

وفى سنة ٢٠٠٣ م فاز قديروف فى انتخابات [مزيّفة] بالرئاسة الشيشانية حيث لم يترشّح ضده أحد.. ففاز بالتزكية.. وفى ٩مايو ٢٠٠٤م وقع انفجار ضخم في ملعب دينامو بجروزنى- خلال الاحتفال بيوم النصر- أدى إلى مصرع الرئيس الشيشاني أحمد قديروف واثنين من حرسه ورئيس مجلس الجمهورية حسين عيساييف ، كما أسفر الانفجار عن مقتل ما لا يقل عن ٣٢ شخصا وجرح نحو ٤٦ آخرين بينهم القائد العسكري الروسي في القوقاز الجنرال فاليري بارنوف ..

وانتهت بذلك قصة العميل الخائن ولكن بقيت آثار خيانته وجاء من بعده شيشاني آخر عميل يواصل تسخير الشيشان للتبعية والهيمنة الروسية .. إنها قصة الغدر والخيانة التي تسود -فى المرحلة الراهنة- كل بلاد العرب وكثرة من بلاد المسلمين في العالم.

myades34@gmail.com

(نشر المقال في جريدة الشعب ٢٣فبراير ٢٠١٧م)